التليفزيون.. والخبرة الممتدة

حينما يشاهد الأطفال التليفزيون يبتعدون عن الخبرات الأخرى، ولكن هل الطفل المشغول بمشاهدة التليفزيون بعيد عن اللعب، أو عن القراءة أو حتى عن التحدث مع الآخرين بأسلوب مفيد.. ؟ الواقع أن هناك أنواعاً من الخبرات متاحة للأطفال على التليفزيون. وأريد أن نأخذ في اعتبارنا هنا الطرق التي يمكن أن نتبعها في اختيار البرامج التي يمكن أن توسع من خبرات الأطفال.

إن ذلك الجهاز العجيب.. (التليفزيون)، يمكن أن يكون حقاً نافذة على العالم Awindow to the world، حتى لو كان هذا العالم المرئي على الشاشة ليس منقولاً عليها بحساسية ودقة. إن الأطفال يمكنهم أن يجدوا الجمال والحق والثقافة والعطف والرقة على التليفزيون. أما كونهم لا يجدون كثيراً من هذه الأمور والخبرات الطيبة فذلك راجع

كنتيجة للمسموح لهم برؤيته أكثر مما هو راجع لتلك النافذة العالمية ذاتها.

ولعلنا ننظر بعين الاعتبار إلى الأوقات ومحتويات الخبرات التي مر بها «جون بوي والتون John Boy Walton» الممثل صاحب الشخصية الرئيسية في مسلسل «The Waltons». إن المشاهدين الذين يعرفون ذلك المسلسل لديهم قناعة بأن «جون بوي والتون» هذا شخص مثالي، مرتبط بأسرته، يقدر قيمة الحياة الحرة فوق «جبال والتون». كذلك هو على صلة شديدة بالطبيعة المحيطة به، وقد تبع في ذلك خطوات جده الأكبر، ولديه ثروة هائلة من الخبرات العريضة التي أتيحت له في حياته. وهذا الشخص لم يمتلك في حياته جهاز تليفزيون، حتى رحل إلى مدينة نيويورك، تلك التي لم يكن لديه أية فكرة عنها ولا عن مناظرها. وهو كذلك لم يشهد في حياته أحداً من الرؤساء الأمريكيين، ولم يمر طبعاً على سلاسل الأدب العالمية، كما لم يحضر حفلاً سمفونياً من قبل.. وكذلك لم ير الصحراء مطلقاً، وعلى ذلك مما لا شك فيه أن مدى خبراته في هذه الحياة كان محدوداً.

ومن جهة أخرى أطفالي أنا لديهم فكرة طيبة عن كل ما أمر به من خبرات حين أذهب لنيويورك، وما ذلك إلا لأنهم قد شاهدوا الكثير جداً عن هذه المدينة على شاشة التليفزيون. كذلك هم قد شاهدوا رؤساء الجمهورية عندنا، كما شاهدوا «السلاسل العالمية World Series». . وكل ذلك -طبعاً- على التليفزيون. لقد جابوا أركان العالم من خلال التليفزيون، وأصبحت لديهم معرفة واسعة ومسلية بثقافات العالم وفنونه، بل وبجغرافيته. . من خلال التليفزيون.

ولن أدعي الآن أن نوعية حياة أولادي أفضل من نوعية حياة «جون بوي والتون» القصصية، وذلك بسبب التليفزيون، ولكني أستطيع أن أقول إن حياتهم مختلفة، يقيناً، عن حياة تلك الشخصية التمثيلية، وربما أضيف أيضاً قائلاً إن حياتهم أغنى في خبراتها. . بسبب التليفزيون لا شك.

وللعلم فإن ما يشاهدونه على الشاشة الصغيرة ليس دقيقاً ولا صحيحاً دائماً، فجماعات الأقلية قد يساء عرض حياتها وأوضاعها على التليفزيون، ولكن أطفالي، على الأقل، لم يحدث أن فزعوا أو ارتبكوا حين رأوا على

الشاشة شخصاً من جنس آخر. أما والدي فقد كان فزعاً مرتبكاً، بل إنه لم يشعر بالارتياح حين رأى -أول مرة- رجلاً اختلف لون جلده عن لون جلده هو. إن التليفزيون يقدم للأطفال حوادث ووقائع تجعلهم يصدرون أحكاماً، ويجب علينا -نحن الكبار والمربين- أن نساعدهم في إصدار أحكامهم تلك.

إن الأطفال يستطيعون اليوم أن يروا أعظم عازفي السيمفونيات عندنا، وأن يستمتعوا بموسيقاهم من خلال جهاز «الاستريو». وهم كذلك يستطيعون أن يشاهدوا أعظم ممثلي العالم وممثلاته وراقصيه، كما يمكنهم رؤية أعظم ما أخرجته أو جادت به قرائح الكتاب. إن أطفال اليوم يستطيعون أن يقابلوا الناس الطيبين الذين يهتمون بأمورهم وأمور مجتمعهم، مثل: «فريد روجرز Fred Rogers»، «ميخائيل لاندون Michael Landon»، «وولتر كرونكايت Walter Cronkite»... إلخ.

إن أخبار التليفزيون اليوم تعرف الأطفال بالعالم الذي يعيشون فيه، وبالأشخاص الذين يشكلون حياتهم، ومن خلال برامج مثل «نوفا Nova»، والبرامج الخاصة بالجغرافيا

الوطنيـة «National Geographic Specials» يستطيع الأطفال أن يروا عظم الحياة وتعقدها في الكوكب الذي يحيون عليه، ومما لا شك فيه أن الأطفال منذ أربعين عاماً لم يكن لديهم شيء يقارن بهذه الفرص الرائعة.

إنه مما لا شك فيه ولا جدال أن التليفزيون يسهم في تثقيف الأفراد الذين يشاهدونه، كما أنه يضيف إلى نضجهم، وسواء أحببنا ذلك أم كرهناه، لا بد أن نعترف بأنه كلما كان المشاهدون أصغر سناً، وكانت مشاهدتهم للتليفزيون أكثر، فإن ذلك الجهاز يكون تأثيره أكبر من حيث تشكيل قناعاتهم وآرائهم. إن كل البرامج التليفزيونية تربي*، ولكن بعض هذه البرامج فقط هي التي تربي تربية إيجابية تعمل على بناء الإنسان.

إن أي طفل في سن الثانية عشرة سوف تسحر لبه «قصة البؤساء Les Miserables» حين يشاهدها على الشاشة الصغيرة إذا ما سبقها بعض الإعداد وإعطاء الفكرة التي تسبق مشاهدة عرضها، شريطة أن يكون الشخص الذي يعطي

* ينبغي أن يتنبه القارئ لهذا اللفظ، فهناك تربية طيبة تبني الإنسان، وتنشئه على القيم الطيبة، وهناك تربية فاسدة أو مفسدة، وهي عكس ذلك طبعاً.. ولكنها توصف بأنها.. تربية.. المترجِم.

الفكرة المسبقة شخصاً مثقفاً ناضجاً، وأن يكون جالساً مع الطفل يستمتع معه بعرض القصة، بحيث يعطيه فرصة بعد ذلك لمناقشة أحداثها، وكذلك للحديث حول إحساسه بما رأى. إنه حتى الطفل ذو خمس السنوات يتأثر بالجوانب القيمية التي يقدمها Charles Schultz من خلال الشخصيات التي يمثل أدوارها.

بل إنني قد أتساءل عمن لا يستفيد -من بيننا نحن الكبار- من البرامج الأسبوعية التي تحكي قيم الطبقة الوسطى، والتي تظهر في عروض نعرفها مثل «الأيام السعيدة The Happy Days»، وبخاصة شخصية Arther Fonzarelli "The Fonz"...

لقد كان العرض المسمى «The Aecent of Man» أكثر من رائع، وإني لأتصور أن الإعجاب والانبهار بالعالم قد استيقظا في أعماق ابنتي الكبرى من خلال دور «كارل ساجان Carl Sagen» في تمثيلية «Golly! Gee wbiz»، ومن خلال الرحلات في «Cosmas»، والعلم والطبيعة التي قدمت للعالم، لا زالت تعني لابنتي خبرات هائلة لا يمكن أن يساويها شيء آخر في حياة طفل عاش قبل أربعين عاماً.

هذا وإن أية خبرات -مهما كانت موسعة وعميقة- للأطفال مع التليفزيون تعتمد بالدرجة الأولى على توجيه الكبارلهم، وعلى تشجيعهم وتيسير الأمر لهم. إننا نعلم أننا بمساعدتنا للأطفال في تعلم القراءة والكتابة، وبتوجيههم فيما يقرأون، إنما نجعل من الكتب طريقاً ممهداً إلى المعرفة وإلى خبرات بلا حدود. وبناء على ذلك أعتقد أننا ينبغي أن نتقدم في الطريق نفسه فيما يتعلق بالتليفزيون، لأن التليفزيون يمتلك الإمكانية نفسها التي بالكتاب وربما أكثر، والتي من خلالها يمكن توسيع وتعميق حياة الطفل، بل ويمكن جعلها أكثر ثراء وبهجة.

إن تعلم استخدام التليفزيون بطريقة جيدة يشبه كثيراً جداً تعلم استخدام الكتاب استخداماً نافعاً ومفيداً، وهذا هو الباب الذي ينبغي أن ينفذ منه الكبار، وبخاصة المعلمون، وذلك إذا أدركنا أهمية القيم التي يمكن أن يقدمها التليفزيون. إن على المدارس واجب أن تقدم «تربية تليفزيونية TV Education» لعالم يعيش عصر التليفزيون. كذلك من المتحتم على المدارس أن تدرس بعض الأمور **عن** التليفزيون، وكذلك ينبغي عليها أن تدرس **من** التليفزيون،

فالتدريس عن التليفزيون ينبغي أن يعطي خلفية عن التليفزيون بوصفه عملاً تجارياً As business، كما يتضمن ذلك التدريس العوامل الاقتصادية التي تفرض أن يكون التليفزيون على ما هو عليه بوضعه الحالي، ووضعه الذي سيكون عليه في المستقبل.

إننا ينبغي أن نصمم أنماطاً من المناهج تساعد الأطفال على مشاهدة التليفزيون يأتي جزءاً من الوسائل الإعلامية الشاملة والمتداخلة مع بعضها، وبوصفه -كذلك- جزءاً من بيئة الاتصالات الهائلة التي نعيشها. ومن ناحية أخرى كذلك ينبغي أن يدرس تاريخ تطور التليفزيون والتوقعات المتعلقة به في المستقبل، إضافة إلى تدريس الطرق المختلفة التي تجعل الوسيلة الإعلامية أكثر استجابة لحاجات الناس.

أما عن منهج التليفزيون، أو المنهج الذي ينبغي أن يدرس عن التليفزيون فيمكن أن يتعرض لأسئلة مثل الأسئلة التالية:

١- ما التطورات التقنية التي جعلت من التليفزيون ما هو عليه اليوم..؟

٢- ما أنواع وأشكال التسلية التي يمكن أن نقتفي أثر

التليفزيون المعاصر وصولاً إليها، بحيث جعلته كما نرى اليوم. . ؟

٣- ما الكيفية التي تختار بها برامج التليفزيون، وكيف يجري تطويرها. . ؟

٤- لماذا تعمد شركات التليفزيون الكبرى المتنافسة Net-works إلى بث برامجها الطيبة المفضلة خلال الأوقات نفسها. . ؟

٥- كيف تستطيع صناعة التليفزيون TV induatry أن تقرر ما يحبه الناس، أو ما سوف يحبونه. . ؟

٦- إلى من يكتب أي شخص -محتجاً- حين يجد عرضاً مزعجاً أو هزيلاً. . ؟ وكذلك حين يجد برنامجاً ممتازاً. . ؟ وماذا عليه أن يقول. . ؟

٧- كيف يمكن أن يصبح الأفراد منغمسين في المجتمع التليفزيوني المحلي. . ؟

٨- ما القرارات التي ينبغي اتخاذها في المستقبل فيما يتعلق بالتقنيات الجديدة، وفيما يختص بالتنظيمات الحكومية المتعلقة بها. . ؟

٩- ماذا نعرف عن الأبعاد التي يمكن أن يؤثر بها التليفزيون سلباً في نوعية حياة الأفراد. . ؟

١٠- ماذا نعرف عن مدى تأثير الانتقاء والتمييز عند مشاهدة برامج التليفزيون في تحسين نوعية حياة الأفراد. . ؟

١١- متى نستطيع القول إن جهاز التليفزيون وسيلة إعلامية متفردة ومتميزة. . ؟

١٢- ما الجوانب التي يشارك فيها التليفزيون وسائل الإعلام الأخرى. . ؟

وفي نهاية هذه القائمة من الأسئلة، لا أستطيع ادعاء أنها شملت كل شيء، ولكنها على الأقل تقدم أفكاراً عن التليفزيون على شكل أسئلة ينبغي أن يجيب عنها كل من يشاهده. أما فيما يتعلق بمستوى الأطفال الدراسي، وفي أي صفوف يكونون، وبأي الطرق ينبغي أن نساعدهم، أو أن نبدأ في مساعدتهم في الإجابة على هذه الأسئلة، فكل ذلك يصبح من السهل الإجابة عن بمجرد أن نصبح على قناعة تامة بأن هؤلاء الأطفال ينبغي أن يسعوا لاكتشاف آثار التليفزيون في حياتهم.

وسوف يخصص الجزء المتبقي من هذا الكتاب لعرض عدد من التوصيات التي توضح كيفية تحقيق وتنفيذ مناهج عن التليفزيون في المدارس، ولكن قبل ذلك هناك بعض الحقائق الأساسية المتعلقة بالتليفزيون، والتي ينبغي علينا جميعاً أن نعيها ونفهمها. لقد كنت من وقت قريب أتحدث إلى طائفة من أبناء مجتمعنا المحلي، وكانوا في معظمهم من العاملين في الجامعة، ولقد سألني واحد منهم السؤال التالي: «لماذا يصرون في محطات التليفزيون على تقديم عرضين شيقين طيبين في الوقت نفسه، أو في ذات الوقت..؟» إن هذا السؤال وأسئلة أخرى كثيرة تشبهه قد جاءتني من كثير من الناس، وبخاصة من المثقفين منهم، وهي كلها تشير -في حقيقة الأمر- إلى عدم معرفة الناس وجهلهم باقتصاديات وسائل الاتصال، والتي هي جزء من حياتنا.

وأسوأ من ذلك أن معظم الأطفال (والكبار) إنما يعرفون ما يعرفونه عن التليفزيون ما «تعلموه» من التليفزيون ذاته، أي أن صناعة التليفزيون كانت خلف ذلك التعليم. إن هذه المؤسسة علمت أطفالنا ألا ينتظروا شيئاً من التليفزيون سوى

الأفلام المتحركة، أو الكرتون، صبيحة كل سبت. إن منهج هذه الصناعة هو أن تعلمنا أنه من الأمور المتقبلة أن تكون نشرات الأخبار أقرب إلى التسلية منها إلى الأمور الجادة والمهمة، وأن تكون أقرب إلى استعراض للشخصيات منها إلى التحليل العلمي والمعالجة الواعية للأحداث المعقدة.

لقد علمتنا وعودتنا شركات التليفزيون الكبرى ومحطاته الرئيسية، أن نتقبل ونتحمل عشر دقائق من الإعلانات التجارية في كل ساعة من ساعات البث التليفزيوني، كذلك علمونا أنه حتى رغم أنهم يقبضون مبالغ طائلة في إذاعة الإعلانات التجارية التي لا آخر لها، لا يستطيعون -ربما- أن يحصلوا على أموال كافية إذا كانوا سيبثون برامج تعتمد على البعد عن التوسط والاعتدال. لقد تعلم الجمهور الأمريكي هذه الدروس ووعاها جيداً، رغم أنه لا يوجد ظل للحقيقة في أي شيء اجتهد أصحاب هذه الصناعة في تعليمنا إياه بحيث نصبح من المؤمنين به. والشيء المثير للحزن هو أن مدارس أمتنا لم تقدم لأطفالنا مناهجها الخاصة التي يفترض فيها أن تقل في تعصبها وتحيزها، وأن تكون أمينة، أو أكثر أمانة من مناهج التليفزيون.

إن التعليم من خلال التليفزيون مهم بلا شك، وهو كذلك مفيد. وإذا كنا ونحن ندرس **عن** التليفزيون نضع في اعتبارنا أننا نسعى لتخريج مواطنين أكثر معرفة، فإن التدريس **من** التليفزيون له هدفه المبدئي وهوتخريج مشاهدين يتميزون بالحساسية وبتقدير ما يشاهدون. وأعترف أني أجد إشكالاً كبيراً في فهم الكم الهائل من الأمور المشاهدة على شاشات التليفزيون، والتي تكاد تخلو من العقلانية، والتي تؤثر طبعاً في أفراد المجتمع، وما يعنيني أكثر هو قلة التفكير الناقد من جانب مجتمعنا فيما يبث له من برامج.

إن من أفضل الأمور التي يمثلها التليفزيون أنه شكل تعبيري قوي عن الفن، وأن أفضل ما في ذلك أنه يمكن أن يعمل على جعلنا بشراً أفضل. وهذا الجانب في حد ذاته يسوِّغ المطالبة بوجود منهج عن التليفزيون في المدارس. وعندما يبدأ المعلمون في ربط ما يمكن تعلمه من التليفزيون في المناهج التي يدرسونها سوف يكتشفون الفائدة الكبرى في ذلك، وكيف أن هذا الذي يمكن تعلمه من التليفزيون سوف يثري ويعمق كثيراً مما يحاولون توصيله إلى الطلاب.

كـمـا أني قـد أتعـجل الأمـور فـأضـيف أن التـعليم من التليـفـزيون لا يمثل الـدواء الشـافي من جـمـيع العلل والأمراض، كما تصوره بعض المعلمين أن يكون، ولا هو كـذلك الشيء السطحي التـافـه الذي ينظر إليـه بعـضـهم الآخـر. هـذا وإني لأتمنى أن يـأتي اليـوم الذي نشـجع فـيـه قراءة الكتاب كأسلوب لفهم التليفزيون، كما نستخدم تماماً مشاهدة التليفزيون هذه الأيام كثيراً طريقة لجذب الطلاب أو الشـبـاب الصـغـار لقـراءة الكتب. وحـينمـا نسـتطيع استخدام التليـفـزيون وسيلة يمكن أن تغني العقل البشري وتثريه، وأن توسع الخبرة الإنسانية وتعمقها، وأن تزيد من مـعلومـاتنا، وأن ترفع من روحنا المعنوية، إذا اسـتطعنا أن نفعل ذلك حقاً فإن نوعية الحياة التي نعيشها سوف تتحسن كثيراً بلا شك.

ولكي نتأكد من ذلك نقول إن التليفزيون يمثل مشكلات كـثيـرة لأوليـاء الأمـور والمعلمين مـعـاً، وكـمـا تخـيل E. B. White جانبي الخير والشر، أو الوعود والمشكلات التي يمكن أن تنتج عـن التليـفـزيون، وكـان ذلك في وقت مـبكر من عـام ١٩٣٨م، ولنقرأ ما كتبه في مجلة Harper's Magazine:

" إن أخبار التليفزيون هي التي أبحث عنها حينما تواتيني الفرصة لقراءة الصحيفة، وما ذلك إلا لأني أعتقد أن ذلك الجهاز سوف يكون هو الاختبار الحقيقي للعالم الحديث، وكذلك أرى أنه من خلال هذه الفرصة الجديدة لكي نرى أبعد مما يقع عليه بصرنا. إننا سوف نكتشف إما اضطرابا جديداً لا يمكن تحمله ضد السلم العام، وإما شعاعاً منقذاً يهبط علينا من السماء. إننا سوف ننهض أو نسقط.. بالتليفزيون We shall stand or fall by Television.. هذا هو الأمر الذي أنا واثق منه غاية الوثوق " .

أما إذا كنا سننهض أو نسقط.. بالتليفزيون، فذلك أمر سوف يتقرر فيما بعد، ولكن الكاتب E. B. White استشعر بالفعل احتمالات تأثير جهاز التليفزيون في ثقافتنا، وكان إحساسه -بالفعل- في غاية الدقة. **إن حياة أطفالنا سوف تتحسن أو تدمر عن طريق الكيفية التي يستخدمون بها التليفزيون، أو عن طريق الكيفية التي يستخدمهم التليفزيون بها..!!** أما الأمر الذي يهمني جداً، وأعده حاسماً فهو أن

يعطي المربون أهمية وانتباها متوازيين ومعقولين للتليفزيون بوصفه جزءاً من المنهج المدرسي. أما إذا قصروا في ذلك فإنهم سوف يفتحون الباب للسؤال عن دور التليفزيون الذي سوف يؤديه في حياة الأطفال والذي لا يمكن أن تكون إجابته في إهماله أو محاولة نسيانه.

أما أولياء الأمور الذين رضوا لأنفسهم بأن يجلسوا قانعين مطمئنين، في حين يتولى التليفزيون العناية بأبنائهم وتربيتهم نيابة عنهم، فهؤلاء لا يحتاجون لعمل شيء آخر، حيث إن صناعة التليفزيون يمكنها أن تقوم بهذه المهمة كاملة، وذلك عن طريق مواصلة ما تقوم به الآن حقاً*.

إن ترك مشكلات التليفزيون دون معالجة سليمة ومواجهة جادة، وترك إمكانيات التليفزيون دون تطويرها في الاتجاه السليم يؤدي بالتربويين إلى أن يتركوا مستقبل الأطفال من المشاهدين في الظلام، مع أمل قليل في وصول الضوء إليهم من خلال قنوات بها شيء من النور القليل الذي يضيء نفوسهم، وكان من الممكن أن يجعلوا منهم أطفالاً

* واضح أن الكاتب يسخر هنا من هذا الصنف من أولياء الأمور الذين يتركون أطفالهم لمؤسسة التليفزيون، كي تربيهم نيابة عنهم.. !! المترجِم.

قادرين على السير في الاتجاه الصحيح في الحياة الإيجابية المثمرة.

إن التربويين حين يسمحون لأنفسهم بأن يجلسوا دون أن يفعلوا شيئاً، فإنهم إنما يساعدون على زيادة الآثار السلبية للتليفزيون، بل وعلى تخليدها، وحينئذ سوف تهرب منا فرص الاستفادة من الإمكانات الإيجابية الهائلة لهذا الجهاز.. سوف تهرب من منازلنا وكذا من المدارس.